

دعوة حركات الإصلاح السلفي

بدأت هذه الدعوة ، في العصر الحديث ، بالدعوة التي قام بها محمد بن عبد الوهاب في نجد وأطلق عليها اسم الحركة الوهابية .

إذا كنا قد استعملنا كلمة وهابية في هذا المقال فليس معنى ذلك أن الكلمة تدل دلالة صحيحة على حركة الإصلاح الديني التي قامت في الجزيرة العربية في القرن الثامن عشر . والحق أنها كلمة أطلقها الخصوم على هذه الحركة ليشعروا بأنها مذهب جديد من المذاهب الدينية فكما تنسب الطرق الصوفية مثلاً إلى أسماء مؤسسيها نسب الخصوم مجموعة الآراء التي دعا إليها محمد بن عبد الوهاب إلى اسم والده .

أما أنصار الدعوة في بلاد العرب وخارجها فيرفضون هذه التسمية ويؤثرون أن يسموا أنفسهم بالموحدين أو بالمسلمين ، تمييزاً بينهم وبين من لا يؤمن بمبادئهم التي هي في رأيهم مبادئ الإسلام الأولى الصحيحة . وكان هذا في الفترة الأولى من تاريخهم التي تميزت بالتشدد. أما الآن فيطلقون على أنفسهم كلمة السلفيين كما يؤكد ذلك صراحة ، قانون الحجاز الصادر سنة ١٩٢٦ أي عند ضم هذا الإقليم إلى الحكم السعودي ، فهو ينص على أن مذهب الدولة الرسمي هو المذهب السلفي .

وليس المبادئ الدينية التي دعا إليها محمد بن عبد الوهاب جديدة في تاريخ الفكر الإسلامي ، فكنا نعرف - ويعترف بذلك علماء نجد أنفسهم - أنه استقاها من أحد مشاهير الحنابلة تقي الدين بن تيمية ، المتوفى سنة ٧٢٨ هـ وتلميذه ابن قيم الجوزية . والجدير بالبحث هو كيف انتقلت هذه الأفكار إلى بلاد نجد المنعزلة عن العالم الإسلامي وبعد انقضاء فترة طويلة تبلغ نحو

أربعة قرون على موت هذين العالمين . خاصة وأن تيارات مضاده لتعاليمهما سيطرت على الحياة العقلية الإسلامية طوال هذه الفترة . وأهم هذه التيارات بلا شك هي :

أولا : الطرق الصوفية وما أحدثته في المجتمع الإسلامي من تقاليد وأفكار تبعد كل البعد عن حياة المسلمين في عصورهم الأولى .

ثانيا : جمود الدراسات الدينية حتى تحولت إلى مجرد جمع أحكام المتأخرين في كل مذهب وهي أحكام بنيت في الغالب على الاستنباط دون محاولة ردها إلى نصوص من آيات قرآنية وأحاديث نبوية ، وأن كان هذا لا يعنى بالضرورة تعارض الأحكام مع النصوص وإنما يصر السلفيون على أن يطمئن كل قاض إلى سلامة حكمه من الناحية الدينية .

على أن غموض تاريخ نجد في الفترة السابقة لدعوة ابن عبد الوهاب قد يجعل من الصعب إيجاد الحلقة ما بين ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب . ولكن بتدقيق النظر في تاريخ عثمان بن بشر ، أشهر^(١) مؤرخي الدولة السعودية الأولى ، نستطيع أن نستنتج أن مذهب الحنابلة كان هو المذهب الغالب في بلاد نجد منذ القرن العاشر الهجري ، في الوقت الذي كان فيه هذا المذهب ضعيفا في جميع الأقطار الإسلامية الأخرى . وهكذا كان قضاة الإمارات الصغيرة المتعددة في نجد ينتمون إلى مذهب ابن حنبل ، كما أن كتب التراجم لا تذكر عالما حنبليا في القاهرة أو دمشق دون أن نجد من بين أساتذته أو تلاميذه أحد النجديين .

ولكن هذا يكفي لتفسير ذبوع تعاليم ابن تيمية بالذات في نجد في القرن الثامن عشر ، ففي هذا العصر كان التيار العام الواقع تحت تأثير المتصوفة قد جرف الفقهاء الحنابلة فنجد أنهم أهملوا مؤلفات ابن تيمية وعكفوا على الكتب المدرسية مثل كتاب (منتهى الإرادات) في الفقه الحنبلي وانخرط

(١) اسم هذا التاريخ عنوان المجد في تاريخ نجد وقد نفع بمكة سنة ١٣٥٢ في مجلدين .

كثير منهم في الطرق الصوفية المنتشرة حيثئذ . وقد استطعنا رغم هذا أن نستدل على أن حنابلة نجد ظلوا محتفظين بنزعة ابن تيمية إلى تطهير العقيدة من المحدثات بدليل ظهور فقهاء من بينهم مثل عثمان بن أحمد النجدي المتوفى سنة ١٠٩٦ هجرية تركوا بعض المؤلفات التي تتم عن هذه النزعة . ونذكر على سبيل المثال من مؤلفات عثمان النجدي كتاب (التوحيد المنتخب من فتح الباري^(١)) . وكتاب (نجاة الخلف في اعتقاد السلف) وأن كان هذا الأخير قد فقد إلا أن عنوانه له مغزى واضح . ويبدو أن هذه النزعة كانت منتشرة في بلاد العرب بصفة عامة . فقبيل ظهور محمد بن عبد الوهاب نجد أحد الشوافع في صنعاء واسمه اسماعيل الصنعاني يؤلف كتاب « تطهير الاعتقاد » وهو يتفق تماما مع تعاليم محمد بن عبد الوهاب الذي حاول الاتصال به .

من هو مؤسس الدعوة الوهابية :

ولد محمد بن عبد الوهاب في إحدى واحات نجد الوسطى وهي واحة العيينة الواقعة في إقليم العارض سنة ١١١٥ هجرية أو سنة ١٧٠٣ م . وكما هي العادة في ذلك الوقت وجه الابن إلى نفس الميدان الذي يعمل فيه والده الذي كان يشغل منصب قاضي الواحة . وجل معلوماتنا عن حياة محمد بن عبد الوهاب مستقاة من مؤلفات أتباعه وخاصة تلميذه حسين بن غنام النجدي . صاحب كتاب (روضة الأفكار والافهام في تاريخ أحوال الامام وتعداد غزوات ذوى الإسلام) وقد نشر هذا الكتاب في القاهرة سنة ١٩٤٩ ويقع في مجلدين .

ولذلك فإن المتتبع لسيرة « الشيخ » يلاحظ أن أنصاره حاولوا أن يوجدوا شيئا بينها وبين سيرة النبي ؛ فهو قد أظهر ذكاء غير عادي منذ طفولته الأولى فرحل إلى المدينة لطلب العلم في سن الثانية عشرة وما

(٢) هذا الكتاب 'مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية رقم ١٩٢٩ (علم الكلام) .

لبيث أن بزّ أساتذته هناك ، فاستأنف الرحلة إلى البصرة حيث لم يشتهر بالتفوق العلمي فحسب ، بل بجرأته في نشر مبادئه التي بدأت تختمر في ذهنه ، فأخذ يهاجم رجال الطرق ومشايخ الشيعة الموجودين بالبصرة مما أدى إلى وقوع بعض حوادث الشغب ، فطرده الوالي العثماني من المدينة ، وفي طريق عودته إلى نجد كاد يهلك في الطريق لولا أن وقع ما يشبه المعجزة إذ وجده أحد المارة ، فحمّله على دابته وسقاه الماء بعد أن كاد يموت عطشا .

وفي واحة العيينة عاد الشيخ يظهر دعوته في نشاط أوسع ، فجمع حوله عدداً من الأنصار ، أخذ يتزايد إلى حد أخاف حاكم الواحة الذي كان في نفس الوقت أمير الأحساء . ويطرد الشيخ مرة أخرى في سبيل دعوته وتحدث له معجزة تذكر بحوادث هجرة النبي من مكة إلى المدينة . فقد أرسل حاكم العيينة من يتبع الشيخ لقتله ، ولكنه حين هم بتنفيذ خطته أراه الله منظرًا مخيفاً جعله يرد السيف إلى جرابه . وهكذا وصل محمد بن عبد الوهاب سالماً إلى واحة الدرعية . حيث قيض له أن يعيش طويلاً إلى سنة ١٧٩٢ ، ويرى بنفسه انتشار دعوته في إقليم نجد بأسره وأن كان الدور الأول في نشر الدعوة قد أنقل من يده إلى يد الأسرة الحاكمة في الدرعية أسرة آل سعود وتحولت أهميتها من الجانب الديني إلى الجانب السياسي .

ورغم هذا التحول فإن المؤرخين يخلطون دائماً بين تاريخ محمد بن عبد الوهاب والتطور السياسي والعسكري للدولة السعودية الأولى وقد نتج عن هذا الخلط أن وصف بعض المؤرخين ، وخاصة المستشرقين ، الدولة السعودية الأولى خطأ بأنها دولة ثيوقراطية وفي رأي أن السعوديين – وإن كانوا قد أهتموا فعلاً بنشر دعوة الإصلاح الديني إلا أنهم لم يكونوا في يوم ما خاضعين لسلطة القائمين بها . كما أن الدولة الثيوقراطية في النظام القديم تعتمد على منح صفة القداسة للرجال القائمين بالحكم ، ومن الواضح أنه لم يدع هذه الصفة لا محمد بن عبد الوهاب وتلاميذه ولا آل سعود أو خلفائهم . وكل ما يميز الدولة السعودية عن غيرها من الدول الإسلامية القائمة

في العصور المتأخرة هو أنها تبرر وجودها برغبتها في تطبيق الشريعة الإسلامية تطبيقاً كاملاً ، وهي سياسة مستمدة من طبيعة الإسلام نفسه .

ورغم أن مناصب القضاء والإفتاء في المملكة السعودية ظلت في الغالب بين أيدي أحفاد محمد بن عبد الوهاب إلا أن مشاركة هؤلاء في الحياة العامة أخذت تتضاءل وليس من تقاليد الحكم السعودي أن يميز هذه الأسرة ، أي أسرة الشيخ ، بصفاتها ذات مركز ديني يختلف عن أي أسرة أخرى تتمسك بأهداب الشريعة . وإذا كان محمد بن عبد الوهاب قد ترك في التاريخ السياسي أثراً كبيراً يفوق ما كان ابن تيمية يتمناه لنفسه ، فإنه من الناحية العقلية البحتة يأتي متخلفاً بكثير عن العالم الحنبلي الشهير . ولا يمكن القول بأن محمد بن عبد الوهاب صاحب مذهب متكامل في الفقه أو علم الكلام ، وإنما تقتصر كتاباته على رسائل قصيرة وتقسيم بطابع الوعظ الأدبي ويتخللها كثير من الآيات والأحاديث ، إلى حد أن تصبح أحياناً مجرد جمع للنصوص . ولذلك فإن الباحث في تفاصيل الدعوة السلفية لابد أن يعتمد قبل كل شيء على تلاميذ الشيخ ، وأكثرهم كما ذكرنا من بين أولاده وأحفاده .

وأشهر هؤلاء هو عبد الرحمن بن حسن الذي عاصر حملة إبراهيم باشا في نجد وأخذ أسيراً في القاهرة حيث أكمل تعليمه في الأزهر . وحمل معه مكتبة نفيسة إلى نجد حين عاد إليها سنة ١٢٤٥ هـ بعد تأسيس الدولة السعودية الثانية . وكذلك لابد من ذكر ابنه عبد اللطيف بن عبد الرحمن الذي عاصر الخلافات الداخلية في الدولة السعودية الثانية وشاهد اندثار هذه الدولة ، بما كان له أكبر الأثر في اعتناقه لمبادئ متشددة . لأننا نعتقد أن الأحوال السياسية التي تبدلت طوال الحكم السعودي قد أثرت على طبيعة الدعوة الدينية .

وفي العصر الحديث يشتهر في نجد سليمان بن سحمان بكثرة رسائله وتعدد الموضوعات التي تناولها بما في ذلك المشاكل الكلامية التي كان يتحرز

سابقة عن الخوض فيها . وقد جمعت رسائل علماء الوهابيين ومؤلفاتهم في مجموعتين كبيرتين نشرت المجموعة الأولى في القاهرة سنة ١٣٤٦ هـ . في أربع مجلدات باسم (مجموعة الرسائل والمسائل النجدية) وقد نشرتها مطبعة المنار التي كانت تعمل لنشر مبادئ الإصلاح الديني في مصر في الوقت الذي انتشرت فيه الدعاية ضد هذا الإصلاح بواسطة الأسرة الهاشمية . وهي حينئذ على خصومة شديدة مع السعوديين الذين أخرجوهم من حكم الحجاز سنة ١٩٢٦ ميلادية . أما المجموعة الثانية فهي تحتوى على نفس المواد ولكنها مرتبة على حسب الموضوعات وتعرف باسم الدرر السنية في الأجوبة النجدية وقد نشرت بمكة سنة ١٣٥١ هجرية .

خصائص الدعوة السلفية :

سبق أن ذكرنا أن الوهابيين يسمون أنفسهم بالموحدين وليس في عقيدة التوحيد ما يميز فرقة اسلامية عن أخرى . إذ أن أساس الإسلام نفسه هو الإيمان بوحداية الله . ولكن تصور هذه الوحدانية قد يختلف من جماعة إلى أخرى ، فالمعتزلة كانوا يسمون أنفسهم بالموحدين ولكن التوحيد عندهم هو الاعتقاد بوحدة ذات الله مع صفاته . ويدعو كذلك كثير من المتصوفة إلى الوحدانية ، ولكنهم يقصدون بها وحدة الوجود ، بحيث لا يتميز خالق الكون عن الكون نفسه ، أما الوهابيون فلا يعنهم البحث عن طبيعة الذات والصفات كما هو الحال بالنسبة للمعتزلة وينكرون على المتصوفة عقيدتهم هذه في الوحدانية . وعندهم أن الوحدانية التي تكون العنصر الأساسي للدين الإسلامي هي الوحدانية التي تترتب على سلوك الموحد وهو ما يسمونه بوحداية الربوبية ، أى أن المؤمن لا يكون موحداً إلا إذا قصر عبادته على كائن واحد ، وهي غير وحدانية الألوهية التي هي الاعتقاد بوجود إله واحد .

ولما كانت العبادة تشمل في رأى الوهابيين جميع مظاهر التبجيل مثل

الدعاء والاستغاثة فان تصرف الغالبية العظمى من المسلمين حينئذ نحو الأولياء ، بل والنبى نفسه يمكن وصفه — فى رأى الوهابيين — بأنه عمل مخالف للتوحيد أو يمكن وصفه بالشرك . ولو أن الوهابيين ينفون عن أنفسهم أتهام غالبية المسلمين بالشرك ، إلا أن تاريخهم فى الفترة الأولى ، يدل على أنهم برروا سياستهم القائمة على محاربة جميع الدول الإسلامية المجاورة بهذا التسلسل المنطقي الذى يؤدى إلى وصف عدد كبير من المسلمين بالشرك . ومعروف إلى أى حد كان العامة يتعلقون بأشخاص الأولياء ومقابرهم حتى عصر قريب جداً . ومن الأسباب التى قدمها الوهابيون لاثبات كفر بعض الجماعات الإسلامية إهمال كثير من المسلمين فى ذلك الوقت لتأدية الفرائض الدينية . وهم فى ذلك لا يختلفون عن كثير من الفقهاء المعترف بهم ، إلا أنهم أختصوا بمحاولة إخراج هذه المبادئ إلى حيز التطبيق العملى ، ومع ذلك لانبجأ أمثلة فى تاريخهم تدل على أنهم قتلوا شخصاً معيناً لامتناعه عن تأدية الصلاة مثلاً .

والمشكلة الثانية التى اثارت جدلاً بين الوهابيين وخصومهم تتعلق بموضوع أصول الفقه . فقد أراد دعاة الإصلاح الدينى أن يرجع الفقهاء والقضاة إلى المصادر الأصلية رأساً وهى عندهم ثلاثة أبواب : القرآن ، والحديث ، واجماع المسلمين على حكم معين إلى آخر القرن الثالث الهجرى . ويترتب على هذا أن يكون لجميع الدارسين المعترف بهم حق الاجتهاد فى الفقه وهو حق كان محظوراً استعماله منذ زمن طويل ، كما تعارف عليه فقهاء العصور المتأخرة . وقد ذهب الوهابيون فى إطلاق هذا الحق إلى أنهم دعوا إلى عدم التقيد بمذهب من المذاهب الأربعة المعروفة ، وإنما يجوز لكل قاض أن يأخذ من أى مذهب ما يرى أنه أقرب إلى النصوص المقدسة الأولى ، ولم يبيحوا التقليد إلا عند العجز عن الرجوع إلى هذه النصوص . ولكن عند التطبيق العملى تبين أن القضاة يصدرُونَ أحكاماً متفاوتة فى الحالات المتشابهة ، ولذلك أصدر الملك عبد العزيز آل سعود

سنة ١٣٤٥ هجرية مرسوماً بالزام القضاة اتباع المذهب الحنبلي . ثم اتبع ذلك بمرسوم آخر حدد فيه للمحاكم السعودية المراجع التي يجب على القضاة التقيد بها ومعظمها من بين مؤلفات الفقهاء المتأخرين^(١) مثل كتاب منتهى الايرادات لموسى الحجاوى المتوفى سنة ٩٦٣ هجرية .

أما مسائل الخلاف التقليدية التي كانت مثار الفرقه بين المذاهب الإسلامية المختلفة كمسألة الذات والصفات والجبر والإختيار فإن الوهابيين ينكرون التحدث فيها ، ولم يهتموا بمناقشة الفرق التي أختفت كهئية قائمة مثل المعتزلة والمرجئه الخ . لذلك احتدم النزاع بينهم وبين الفرق التي ظلت تلعب دوراً اجتماعياً وسياسياً في العالم الإسلامي حتى قيام الوهابيين . وأعنى بهذه الفرق المتصوفة أولاً والشيعة ثانياً . ولم يقف الخصومة بين هؤلاء عند مجرد المجادلات النظرية بل تجاوزتها إلى القتال المسلح ، فقد تعمد الوهابيون مثلاً الغارة على مدينة كربلاء في العراق سنة ١٨٠٢ ميلاديه ، وانتقموا هناك من علماء الشيعة وحملوا نفائس قبر الحسين إلى نجد معتقدين انهم فعلوا ذلك جهاداً في سبيل الله .

وقد اشتهر الوهابيون ببعض المبادئ الطهرية مثل تحريم الدخان ولبس الحرير والذهب ، لكن مثل هذه المبادئ ليست أساساً في المذهب بعكس ما يشيع بين الناس ، فمثلاً لم يحرموا شرب الدخان لتعنت أو تصلب في الدين كما يشيع الخصوم . ولكن كما يذكر الوهابيون أنفسهم لأن شرب التنباك بكثرة قد يسكر . وقد وصف يبلى أحد الرحالة البريطانيين في القرن التاسع عشر دخان بلاد العرب بأنه أقوى ثلاثين مرة من دخان فرجينيا ، مما يجعلنا ننظر إلى قول الوهابيين دون الإحساس بالسخرية .

ولست آراء الوهابيين قاصرة على الأمور الدينية البحتة بل لعل أهم ما أكتشفناه في مجموع تعاليمهم هو ما يمكن تسميته بالآراء السياسية الدينية

(١) أنظر البلاد العربية السعودية لقواد حزه ص ١٨٩ وما بعدها .

فقد كان الوهايون أول من دعا إلى فكرة العروبة في العصر الحديث ، وأن لم تكن الفكرة قائمة على أساس قرى بقدر ما كانت قائمة على أساس ديني ، فقد صرحوا بأن العرب أفضل من الترك ، ولكن على أساس أن الترك أقل أتباعاً لتعاليم الإسلام من العرب^(١) . وكذلك قالوا أن مكة تحت الحكم التركي تعتبر من بلاد الكفر . وأن العثمانيين أغتصبوا الخلافة وأنها إن وجدت فالعرب أحق بها .

على أن سياسة الدولة السعودية الأولى ثبت أنه كان هناك فكرة أولية عن معنى القومية ، لا قومية نجدية أولاً ، ثم تطورت إلى فكرة قومية عربية . والعرب في مفهوم السعوديين الأوائل كانوا هم سكان شبه جزيرة العرب دون بلاد الشام أو مصر ، رغم أن أهلها يتكلمون العربية . فهو مفهوم قائم على الوحدة الجنسية . ويدل على هذه السياسة أنهم كانوا منذ قيامهم من الدرعية بحركة التوسع يتوقون إلى توحيد نجد تحت حكمهم ، فلما تم لهم ذلك أصبحت نجد أشبه بوطن للدعوة الوهابية ، بحيث كان الوصف بنجدى يعنى الوصف بوهابى في كثير من الأحيان . وقد رأينا أن الرسائل الوهابية تعرف باسم الرسائل النجدية .

فلما اتسع سلطان السعوديين وشمل معظم الجزيرة العربية ، وأصبحت الدولة العثمانية هي خصمهم الأول رأينا هذه القومية المحلية تتحول إلى فكرة قومية عربية بمعنى أوسع من نجد ، ونتيجة لهذا نلاحظ أن كثيراً من قبائل الشام والعراق قد رحبت بالحكم السعودي لأحاسيسها بأن هناك وحدة جنسية ولغوية تجمع بينها وبين الدولة العربية الناشئة .

وقد تصور الوهايون أن الأمة الإسلامية هي مجموعة المدن والقبائل التي خضعت للحكم السعودي ولذلك نجد من أغرب الآراء السياسية الدينية تلك التي تتعلق بموضوع انتقال السكان إلى خارج المنطقة التابعة للدولة .

(١) انظر الدرر السنية ج ١ ص ١٥٠ .

فبينما يلزم الوهايون اتباعهم الذين آمنوا بالدعوة بترك ديارهم إذا كانت واقعة خارج الحكم السعودي إلى داخل حدود الدولة ، ويسمون ذلك بالهجرة الواجبة ، نجد أنهم يحرمون الانتقال من داخل الدولة إلى المناطق الواقعة خارج حدودها لغير غرض التجارة وقد شهد الرحالة برنارد^(١) وهو خير من كتب عن الوهابيين وتاريخهم بأن الوهابيين ينفذون هذه القاعدة .

ويعتبر الوهابيون من أشهر الناس تمسكاً بضرورة قيام إمامة للأمة الإسلامية . والإمامة عندهم غير الخلافة ، فهي لا تتضمن صفه العموم بالنسبة للعالم الإسلامي ، والخلافة العامة لم تدم في رأى الوهابيين أكثر من ثلاثين سنة . ثم تحولت الرئاسة في عهد عثمان بن عفان إلى ملك . ومنذ ذلك التاريخ يمكن الإعراف بعدة أئمة في وقت واحد . ولا يشترط في الإمام النسب القرشي كما هو الحال بالنسبة للخلافة . ولما كانت الإمامة ضرورة جماعية للمحافظة على مصلحة الجماعة الإسلامية فإن الوهابيين يقبلون جميع الوسائل التي يستطيع بها الإمام أن يقر الحكم في الجماعة ، سواء أكانت هذه الوسائل قائمة على البيعة أو التوارث أو تعيين الإمام لخليفته أو حتى استعمال القوة ، وهو ما يسميه الوهابيون القهر . وكما يعتقد الوهابيون بوجوب الطاعة على الأمة فإنهم كذلك يجعلون نصيحة الأمام واجبة على كل فرد يحس في نفسه القدرة على ذلك^(٢) .

التاريخ السياسي في الجزيرة العربية :

لعل قيام دولة موحدة في الجزيرة العربية ، هي أهم النتائج التي ترتبت على دعوة الإصلاح الديني أو كما قلنا من قبل ، أن الجانب السياسي للحركة

(١) زار هذا الرحالة السويسري بلاد العرب سنة ١٨١٤ م . ونشر كتابه .

Notes on the bedouins and Wahabis. London 1829.

(٢) يعتبر كتاب « توضيح الخلاق في الرد على أهل العراق » . لسليمان بن عبد الله ابن محمد بن عبد الوهاب أهم مرجع للآراء السياسية .

الوهابية هو الذي يعطيها الأهمية الظاهرة في التاريخ الإسلامى الحديث ، أكثر مما يكسبها الجانب الدينى . فمنذ انتقال مركز الخلافة من داخل بلاد العرب إلى الشام والعراق فى القرن الأول الهجرى ظلت هذه المنطقة خاضعة للنزاعات القبلية إلى أن وحدتها فى أواخر القرن الثامن عشر الدولة السعودية الأولى . وقد مر تاريخ السعوديين بثلاثة أدوار رئيسية :

الدور الأول :

من ١٧٤٤ إلى ١٨١٨ — ويعتبر اتفاق محمد بن عبد الوهاب ومحمد بن سعود فى الدرعية سنة ١٧٤٤ إيذاناً لمولد الدولة الجديدة . ويروى لنا الألوسى^(١) كيفية وقوع الاتفاق بين الرجلين : فيبين أن محمد بن عبد الوهاب تنبأ منذ ذلك الوقت لابن سعود بملك نجد بأسره ويقول (فلها تحقق محمد بن سعود من المصالح الدينية والدنيوية مد يده إلى الشيخ مبايعاً) وقد واجه أمير الدرعية أقصى مرحلة فى تاريخ السعوديين أثناء محاولة توحيد نجد تحت حكمه إذ أن كل واحة من واحاتها كانت تعتبر وحدة سياسية مستقلة هذا بالنسبة للحضر ، أما البدو فكانوا يتبعون النظام القبلى ولا يخضعون لأى سلطة سياسية . وكان على محمد بن سعود أن يحتل جميع الواحات احتلالاً عسكرياً من جهة ، وأن يضطر القبائل البادية إلى الاعتراف بسيادته من جهة أخرى .

وإذا عرفنا أن واحة الرياض وهى من أكبر واحات نجد فى ذلك الوقت ظلت تقاوم غزوات أمير الدرعية مدة ثلاثين سنة ، أدركنا إلى أى حد واجه بن سعود عقبات عسيرة . لذلك لم يتم توحيد نجد إلا فى عهد ابنه عبد العزيز سنة ١٧٨٦ ميلادية أو سنة ١٢٠٠ هجرية . أى بعد أكثر من أربعين سنة منذ مبايعة محمد بن عبد الوهاب فى الدرعية .

لم تنبه الدولة العثمانية إلى خطورة الحركة الناشئة إلا بعد أن تمت

(١) تاريخ نجد الحنبلى ص ١١٠ ، ١١١ .

المرحلة الأولى في توحيد بلاد نجد . واستأنف السعوديون توسعهم شرقاً في إقليم الأحساء وغرباً في إقليم الحجاز . ذلك أنه رغم وقوع بلاد العرب بأسرها نظرياً تحت السيادة العثمانية إلا أن السلطة الفعلية للحكومة المركزية لم تتجاوز يوماً ما الأماكن المقدسة في الحجاز ، وبعض مدن الأحساء الكبيرة . مثل الحفوف ، وموانئ الخليج الفارسي . وعندما بدأ السعوديون بمهاجمة مدن الأحساء ، كانت الحكومة العثمانية قد تركت إدارتها لقبيلة عربية قوية ، هي قبيلة بني خالد وجعلتها تحت إشراف والي بغداد .

ومع ذلك فقد ترك الوالي رؤساء بني خالد يتولون الدفاع بأنفسهم عن الأحساء ، إلى أن بسط الوهازيون نفوذهم عليها ، وأقاموا حاميات في مدنها وأخضعوا القبائل البحرية التي تسكن سواحل الخليج الفارسي . وكانت أول حملة وجهها العثمانيون ضد الدولة العربية الجديدة هي تلك التي جهزها والي بغداد سليمان باشا سنة ١٧٩٧ ميلادية . فزلت في ميناء القطيف وتقدمت حتى مدينة المبرز وهنا واجه العثمانيون صعوبة حرب الصحراء ، إذ لم يتمكنوا من تموين جيوشهم وراء خطوط طويلة وثبت عجزهم عن القيام بأي حصار طويل للبدن السعودية . وعلى أثر فشل هذه الحملة بدأ الوهازيون يطمعون في الزحف على جنوب العراق ، وشجعهم على ذلك أن القبائل النازلة في هذه المنطقة كانت على نزاع دائم مع والي بغداد إلى حد أن هذا الوالي فكر سنة ١٧٩٩ م في عقد صلح مع السعوديين حتى يضمن مرور قوافل الحج من العراق إلى الحجاز عبر نجد .

ولكن المشكلة كانت أكبر من مجرد السماح لمرور قوافل الحجاج . فإن الأماكن المقدسة نفسها كانت مهددة بالاحتلال السعودي لأن الشريف مكة صاحب السلطة الفعلية بالحجاز كان يتولى وحده الدفاع عنها . وكانت سياسة الشريف القائم حيتنذ وهو غالب بن سرور تبعد القبائل الحجازية عن صداقته لأنه كان شحيحاً ولا يشركها فيما يحصله من الأرباح الوفيرة التي تجنيها له مواسم الحج . لذلك بعد أن انضمت هذه القبائل إلى الحكومة

السعودية تمكن سعود بن عبد العزيز من دخول مكة فاتحاً سنة ١٨٠٣ م ،
(١٢١٨ هجرية) . وكان ذلك صفة قوية في وجه الحكومة العثمانية أمام
العالم الإسلامي إذ ثبت عجزها عن تأدية وظائفها كحكومة للخلافة الإسلامية
عليها واجب تأمين طرق الحج .

وقد ترتب على استيلاء السعوديين على الحجاز ، أن انقطعت قوافل
الحج من مصر والشام وأنحاء العالم الإسلامي المختلفة لأن السعوديين في ذلك
الوقت كانوا يعتبرون سكان هذه البلاد التي لم تدخل في حكمهم من المشركين
أو على الأصح كان أهل هذه البلاد غير مستعدين لاحترام قواعد الإصلاح
الديني أثناء قيامهم بشعائر الحج . ولذلك لم يسمح لهم السعوديون بالدخول
إلى الأماكن المقدسة مما كلف أهل الحجاز خسارة مادية عظيمة على انقطاع
المساعدات التي كانت تصلهم من الأوقاف في الولايات العثمانية .

والحق أن الدولة السعودية الأولى قد أثارت بتصرفها هذا غضب العالم
الإسلامي وإن كان لعدائها للدولة العثمانية ما يبرره . ومن الواضح مثلاً أنه
كان من المستحيل السماح لقوافل الحج العثمانية الرسمية بالدخول إلى البلاد
السعودية ، في الوقت الذي كانت فيه الدولتان في حالة حرب مستمرة .
وقد وصلت الدولة السعودية أوج عظمتها سنة ١٨١٠ ميلادية حين امتد
نفوذها على بادية العراق والشام . ويذكر لنا قناصل الدول الغربية في بغداد
وحلب ، أن القبائل التي تسكن حوال هذه المدن كانت تخضع للسعوديين
وأن سكانها كثيراً ما روعوا بذيوع أنباء عن غزو السعوديين للمرقب
بغداد أو دمشق أو حلب . وبما زاد في خطورة الحركة السعودية بالنسبة
للعثمانيين أنها لم تكن مجرد ثورة سياسية على الحكم العثماني كما اعتادت
الاستانة في ثورات الباشوات ولكنها كانت حركة دينية تنسك على
العثمانيين سلطتهم الشرعية .

ولم تكن الدولة العثمانية هي الدولة الكبرى الوحيدة التي احتكت بها

الدولة السعودية الأولى . فإنه بعد أن وطد السعوديون سلطتهم على سواحل الخليج الفارسي وانضمت لهم القبائل التي كانت تعيش من القرصنة البحرية . أصبحوا هم المنظمين لهذه الأعمال البحرية التي تجيزها تقاليد ذلك العصر . ولوحظ أنه بعد أن أحست القبائل باستنادها إلى دولة قوية كالدولة السعودية تشجعت على مهاجمة السفن البريطانية التي تتردد على مياه الخليج . وكانت من قبل تخشى العالم البريطاني وتقصر قرصنتها على السفن العربية التابعة للبحرين أو مسقط . بل واستطاعت أن توسع من ميدان نشاطها ، فيسجل لنا مؤرخ البحرية الهندي لو (Law) أن القبائل التابعة للوهايين هاجمت سنة ١٨١٨ ميلاديه سفينه بريطانية على بعدستين ميلا من ميناء بومباي . وقد ترتب على هذا أن قام الإنجليز بأول حملة بحرية في الخليج الفارسي سنة ١٨٠٩ م . ثم وطدوا نفوذهم بحملة أخرى سنة ١٨١٩ م وذلك بأن تحالفوا مع الإمارات التي كانت تخشى ابتلاع السعوديين لها ، وخاصة أمانيات مسقط والبحرين والكويت . ويبدو أنه في الوقت الذي بدأ فيه محمد علي حملته الكبرى ضد السعوديين من الغرب لم تخف وطأة الأعمال البحرية في الشرق ضد الإنجليز كما يدل تاريخ البحرية الهندية .

ومن المعروف أن محمد علي قد حقق ما عجز عنه ولاية دمشق وبغداد من القضاء على الدولة السعودية الأولى بالحملة المتعددة التي استمرت سبع سنوات من سنة ١٨١٨ إلى سنة ١٨١٨ م . والتي كلفت الشعب المصري كثيراً من التضحيات في المال والرجال . وليردنا للمؤرخ المصري المعاصر عبد الرحمن الجبرتي . للاحتفال بأنفسهما من الرأي العام المصري كان يعطف على حركة الإصلاح الديني . ويفضل الوهابيين على الأتراك ، وبالإضافة إلى الذين يضطهدون هذا الشعب^(١) . وإذا كان محمد علي قد نجح في القضاء على السعوديين كسلطة سياسية ، فإنه فشل تماماً في التقليل من نفوذ الدعوة الدينية التي كان السعوديون رمزاً لها على الأقل في إقليم نجد . لذلك ما كاد

(١) تاريخ الجبرتي ج ٤ ص ١٤٥ .

يخلى هذا الأقليم سنة ١٨١٩ حتى تهيأت الظروف لقيام دولة سعودية جديدة .

الدور الثاني :

ظلت الدولة السعودية الثانية محصورة في إقليم نجد ولم تستطع استعادة نفوذ الدولة الأولى لعاملين :

أولا : أن محمد علي لم يكف عن محاولاته لبسط سيطرته على الجزيرة العربية . حتى سنة ١٨٤٠ م .

وثانيا : لوقوع خلافات عنيفة بين أعضاء الأسرة على تولي الحكم بعد وفاة الشخصية الكبيرة في هذا الدور وهي شخصية فيصل بن تركي سنة ١٨٦٧ م .

وعندما أسس تركي بن عبد الله هذه الدولة سنة ١٨٢٢ م كانت الدرعية قد حطمت . فاتخذ من الرياض عاصمة لحكمه واستطاع أن يستولي على الأحساء فترة قصيرة . وقد بدأت هذه الدولة تضعف بشكل واضح بعد وقوع النزاع بين عبد الله وسعود بن فيصل . والتجاء سعود إلى الأتراك لمعاونته مما شجع هؤلاء على إرسال حملات إلى بلاد العرب سنة ١٨٧٠ م . وتحويل الدولة السعودية من دولة مستقلة إلى أمانة تابعة للسيادة العثمانية . إذ أصبح سعود بن فيصل متصرفا من قبل العثمانيين على إقليم نجد . وعندما حاول أخوه عبد الله الانفصال عن الدولة العثمانية . عجز عن مواجهة آل الرشيد الذين كانوا يتولون شمال نجد من قبل العثمانيين أيضا . وبمعاونة الأتراك استطاعوا أن يقضوا على الحكم السعدي من نجد سنة ١٨٩٢ م .

الدور الثالث :

عندما قام عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود بغارته الشهيرة على الرياض سنة ١٩٠١ م ، كانت الأسرة السعودية تعيش لاجئه عند أمير

الكويت مبارك الصباح . ولذلك يعد بناء المملكة السعودية الحديثة ثمرة لكفاح الملك عبد العزيز الشخصى . ولعل هذا ما أثار إعجاب معظم المؤرخين الذين كتبوا عنه باللغة العربية أو باللغات الأجنبية ، وهم ليسوا بقليل . ولا نستطيع أن نتبع ادوار نضال الملك عبد العزيز لإعادة بناء حكم السعوديين فى نفس الحدود التى بلغت الدولة السعودية الأولى . ويمكن أن نشير إلى أنه أتم هذا العمل فى خمس وعشرين سنة ما بين سنة ١٩٠١ ، سنة ١٩٢٦ ميلادية .

وقد كان عبد العزيز معرضا للوقوع فى الأخطاء التى وقعت الدولة الأولى فيها وهى الأخطاء التى أثارت عليها الدول المجاورة . وفى ذلك الوقت كان الإنجليز قد حلوا محل الدولة العثمانية فى السيطرة على العراق وشرق الأردن بالإضافة إلى أمارات الخليج . فقد كانوا فى الحقيقة هم الحائل المادى الذى أوقف حركة التوسع السعودى فى القرن العشرين . ولما كان الملك عبد العزيز قد اعتمد فى بناء ملكه على نفوذ دعوة الإصلاح الدينى بين سكان نجد فقد كان عليه أن يحافظ على تعاليم الدعوة كما رأيناها فى القسم السابق . أى أنه كان ملزما بصفته إماماً ، بنشر الدعوة بالقرى فى جميع الأقطار الإسلامية المجاورة . أو على الأقل ، فى عدم التعاون معها لأنها لا تلتزم بتعاليم الإصلاح الدينى .

وقد كان هناك فعلا تيار قوى يضغط عليه لاتباع هذه السياسة . وتمثل هذا التيار فيما يعرف بجماعة الأخوان وهم البدو الذين أقام لهم عبد العزيز قرى زراعية بعد أن قام بحفر آبار ارتوازية فى نجد وشمال الحجاز وشجعهم بأسم الإصلاح على ترك حياة البداوة والاستقرار فى هذه القرى الزراعية . وقد بلغت هذه القرى حسب تعداد جريدة أم القرى سنة ١٩٢٦ م مائى قرية تضم نحو ثلث سكان نجد . وكان الإخوان بمثابة الجيش العامل فى خدمة الملك فبفضلهم استطاع فتح الحجاز سنة ١٩٢٥ م . وعسير فيما بعد . وكان الإخوان يريدون إملاء سياستهم التى ترمى إلى غزو العراق والكويت

على الملك . دون مراعاة أو فهم للظروف الدولية الجديدة . فلما حاول عبد العزيز منعهم من التمدد في هذه الأعمال العدوانية . أعلنوا خروجهم عليه . ولولا أنه استعان بوسائل الحرب الحديثة . لما استطاع القضاء على ثورتهم الهائلة سنة ١٩٣٠ م . ويمكن القول انه بعد اختفاء حركة الإخوان ضعفت أهمية الحركة الوهابية كعامل ديني يؤثر في سياسة الحكومة السعودية . وانحصر نفوذها في ميداني القضاء والتعليم . إذ مازالت كتب بن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب تدرس في المدارس الابتدائية والثانوية في المملكة العربية السعودية .

أثر حركة الإصلاح السلفي خارج حدود العرب

فوت دعاة الإصلاح على أنفسهم فرصة الدعاية لمبادئهم حين قررت الدولة السعودية الأولى قفل الأماكن المقدسة أمام الحجاج من الأقطار الإسلامية الأخرى . مع أنه في الحالات القليلة التي سمحت فيها بدخول قوافل حجاج أجنبية أثار نظام الوهابيين إيجاب الوافدين من الأقطار البعيدة كما حدث سنة ١٨١٠ م بالنسبة لقافلة المغرب التي كان يرأسها ولي عهد المغرب .

وللباحث أن يتساءل هل قامت الحركات السلفية القوية في أواخر القرن التاسع عشر كنتيجة مباشرة للدعوة الوهابية ، أم أنه تصادف قيامها نظراً لوقوع المسلمين تحت تهديد الأطماع الأوروبية ، ومحاولتهم إحياء الروح الدينية القوية حيث غابت عنهم فكرة القومية بالمعنى الإقليمي الحديث . وإذا أخذنا تاريخ حركة الإصلاح الديني في الهند وهو أشهر مثل لهذه الحركات المملوكية التي حملت اسم الوهابية صراحة . فإننا نستطيع أن نؤكد أن قيام هذه الحركات المختلفة كانت وليدة الظروف الجديدة المحيطة بالعالم الإسلامي . دون أن يكون هناك بالضرورة علاقة أخذ من حركة بلاد العرب مباشرة .

فقد بدأ سيد أحمد ، الذي ينسب إليه تأسيس الحركة الوهابية في الهند ، كفاحه سنة ١٨٢٦ م . كزعيم حركة سياسية بحته تهدف إلى إحياء الحكم الإسلامي على أثر تصدع دولة المغول الإسلامية الكبيرة في الهند . ولم يكن سيد أحمد هو الذي تزعم المسلمين ملء الفراغ الجديد وإنما اختص بالمنطقة الشمالية الغربية من جزيرة الهند حيث كان المسلمون واقعين تحت تهديد خطرين : الأول من جهة الغزاة الأجانب أو الإنجليز والثاني من جهة السيخ الذين أسسوا دولة قوية في إقليم البنجاب .

ولم يعرف عن سيد أحمد أنه اتصل بدعاة الإصلاح الديني في الجزيرة العربية وحتما قام بفريضة الحج كان ذلك عام سنة ١٨١٨ م أي بعد أن أخرج الوهابيون من الحجاز . وقد ظل أنصار سيد أحمد يعرفون باسم المجاهدين ولم يشتهروا بشيء من تعاليم الدولة السلفية سوى أنهم دعوا إلى فتح باب الاجتهاد . ونلاحظ أن أنصار سيد أحمد أشاعوا بعد وفاته مبدأ عودة الإمام المنتظر وهو مبدأ شيعي يتعد تماماً عن روح الحركة السلفية العربية . ولكن حدث فيما بعد اتصال بين علماء نجد وعلماء الهند وخاصة سكان الإقليم الشمالي الغربي وكشمير حيث بقيت ثورة سيد أحمد قائمة ضد الحكم البريطاني حتى سنة ١٨٨٠ م ، وقد قدم كثير من سكان هذه المنطقة إلى المحاكمة أمام المحاكم البريطانية بتهمة انتابهم إلى « الثوار الوهابيين » .

وبما ثبت الاتصال الفكري بين الحركات السلفية أن كثيراً من كتب الوهابيين وابن تيمية طبعت في الهند أواخر القرن التاسع عشر وذلك قبل أن يضطلع السيد رشيد رضا بهذه المهمة في مصر ، وقبل أن يمتلك السعوديون للمرة الأولى مطبعة حديثة سنة ١٩٢٦ م ويعرف السلفيون الآن في الهند باسم « جماعة أهل الحديث » .

وبما يستحق الملاحظة أن الحركة السلفية في شمال أفريقيا ارتبطت أيضاً ارتباطاً وثيقاً بالحركات القومية الموجهة ضد الاستعمار الفرنسي . وقد عرفت

السلفية أولاً في أواخر القرن التاسع عشر بفضل الحملة التي شنها محمد بن العربي العلوي أحد علماء فاس على الطرق الصوفية . ومن المعروف أن لهذه الطرق نفوذاً كبيراً جداً في شمال أفريقيا . وكان من نتائج ذلك أن قرر مولاي عبد الحفيظ ، الذي تولى الحكم في مراکش سنة ١٩٠٧ م ، إقفال زوايا الطريقة الكتانية حين أكتشف أن مشايخ هذه الطريقة يتآمرون مع الفرنسيين . فكان على السلفيين أن يناضلوا ضد عدوين في شمال أفريقيا : وهما رجال الطرق من ناحية والغزاة الأجانب من ناحية أخرى . فضلاً عن أن هذين العدوين كانا متحالفين لا في شمال أفريقيا وحدها بل في جميع الأقطار الإسلامية الأخرى .

وللمحركة السلفية يرجع الفضل في إحياء القومية الجزائرية : فقد كان الزعماء الجزائريون بعد طول الانقطاع عن العالم الإسلامي وثقافته مترددين في اختيار الأسس التي تبني عليها القومية الجزائرية . وذهب بعضهم إلى حد إنكار وجود هذه الأسس أصلاً ، فكان علماء الدين الذين تتقفوا في الشرق الإسلامي على يد دعاة السلفية في مصر والشام والحجاز هم الذين حافظوا على التراث العربي الإسلامي للجزائر ، بعد أن كاد ينمحي أثره تماماً أزاء محاولات فرنسة الجزائر .

وفي سنة ١٩٢٩ م . أسس عبد الحميد بن باديس جماعة العلماء الجزائريين . وقد اقتصر عملها في الفترة الأولى على نشر مبادئ الإصلاح الديني ومحاربة رجال الطرق ورغم هذا فقد تخوفت السلطات الفرنسية من نشاطهم الديني والثقافي . وتصدت لمقاومتهم فأصدرت السلطات الفرنسية وهي المهمة على الشؤون الدينية في الجزائر منشوراً سنة ١٩٣٣ م ، يحرم على (الوهابيين) الخطابة الدينية في مساجد الدولة . ويبدو أن السلطات

في الهند أو الجزائر ، هي التي كانت تعتمد وصف السلفيين بالوهابية تنفيها
للرأى الإسلامى منهم ، خاصة وأن خصوم السعوديين السياسيين قد أشاعوا
في ذلك الوقت كثيراً من الدعاية ضد (الفرقة الوهابية المارقة) . وقد ترتب على
موقف الفرنسيين هذا أن تحولت جماعة العلماء الجزائريين من هيئة دينية
خالصة إلى حركة قومية ، كان لها فضل إعادة وصل الجزائر بشقيقاتها الدول
العربية والإسلامية .

صريح الدين العقاد